تقدم العالم (١)

المعرفة والاختراع والشجاعة الادبية هي القوى الفعالة في بنيان المدنية ، وما برحت تعمل ببطء وثبات في تذليل العقبات القائمة في طريق الحياة البشرية

اما الجهل والتعصب فانهما دائبان في حربهما ضد الجديد المفيد وفي تقييد الافكار بقيود من الغباوة والتقليد العقيم

ولكن قاطرة التقدم تسير الى الامام من ظلمة العهد القديم الى نور العهد الجديد ، من جهالة الامس الى معرفة اليوم وأنوار الغد ، ممهدة الطريق التي يجدر بالانسان ان يطرقها ليبلغ ذروة الرقي والفلاح

***

يجلس البخيل يحصي مالهُ ، ويتذكر الجهود البالغة التي بذلها في جمعهِ . وفي هذا الحساب وهذه الذكرى يجد لذتهُ وطمأنينتهُ

اما ثروة العالم فهي التقدم في تذليل الصعوبات والضرب على الاوهام والخرافات . وكما ان البخيل يجد لذتهُ باحصاء امواله ، هكذا يستطيع العاقل ان يجد لذةً بالغة في احصاء الدرجات التي اجتازتها الحضارة التي نعيش في اكنافها والتقدم الذي بلغهُ الشعب الذي هو احد ابنائهِ

يحسن بنا ان ندرس الماضي ونتذكر حوادثه ، لاننا نجد فيهِ قوةً تجري الدم حيناً في عروقنا وتولد فينا شجاعة بالغة للقيام باعمالنا . في درس الماضي نرى الصعوبات والعقبات التي قامت في وجه آبائنا وذللوها ، وتتحقق سهولة ما علينا بالنسبة اليهم ، ونرى عظمة الحرية والغربة والحقائق التي وصلت الينا ونتمتع اليوم بفوائدها بعد ما مرّت في عصور مختلفة ، وبذلك جميعه نتشجع ونقوى عزيمتنا على السير باقدام ثابتة في الطريق الممدة لنا

اوراق النقد ، والذهب ، والسندات المالية ، والاسهم التجارية ، وسندات البيع والرهن وغيرها تؤلف ما نسميهِ ثروةً وهي ما يتنعم ذلك البخيل باحصائهِ والمحافظة عليهِ

اما ثروة الجنس البشري وكنوزهُ فعديدة أهمها — الاختراعات النافعة ، والشرائع

(١) للكاتب الاميركي الشهير ارثر برزبان وترجمة الارشمندريت انطونيوس بشير

الصالحة ، والمدارس العمومية ، والمبادئ الجديدة المفيدة التي قضت على الخرافات والاوهام ، والمعارف الجمة ، والاختراعات العادلة التي سهلت على الانسان حياته وفسحت له مجالاً واسعاً للراحة والسعادة ، والتلذذ بهنة في حياته الجسدية والفكرية

فقد كانت جهود الانسان في كل خطوة من خطواته في مدنيته الحاضرة تقوده الى الحجة المثلى التي هي السعادة العظمى والحرية للعقل والجسد

***

كان عهد وكان الناس فيه عبيداً باجسادهم وافكارهم ، يتحكم فيهم سيدهم في ملكه ومطلق تصرفه بيعاً وشراء وكانوا يعملون في الارض ولا يأكلون نتاج أعمالهم الا اذا شاء استبداد اسيادهم ان يطعمهم من فضلاتهم . وقد قال احد عظماء فلاسفة اليونان ان المدنية لا يمكن ان توجد بدون العبودية ، وربما كان على حق في عصره لانه لولا عبودية الاكثرية لما تمتعت الاقلية بالراحة والرفاهية . ولولا الرفاهية لما استطاع الانسان ان يفكر حراً من قيود حاجاته المادية المتنوعة

فان الامة او الفرد في الامة يجب ان يكون لكل منهما من القوة والمجال لضمان حياتهما ما يساعدهما على القيام باعمالهما بما يقتضي من الجهد والعناية

فالمدنية نشأت على الانهر العظيمة ، في مصر على ضفاف النيل ، وفي ما بين النهرين على ضفاف الدجلة والفرات

وقد نشأت المدنية على ضفاف هذه الانهر كما نشأت على غيرها لان الناس الذين عاشوا في ذلك العهد كانوا واثقين بأن لهم كفاية من الرزق لمعيشتهم وراحتهم

لان الماء كان يجري في تلك الانهر حاملاً معهُ من الطين والاعشاب والاخشاب ما كان يغني الارض ويجعل ابناء القوة من الناس مطمئنين الى مأكلهم ومشربهم

اما الذين امتازوا بالقوة الفكرية فقد عرفوا كيف يستخدمون غيرهم ويعيشون على أتعابهم . ولذلك كان لهم متسع كاف من الوقت ، بفضل عبيدهم ، للتفكير في مستقبلهم ، وبناء هياكلهم وأضرحتهم وأهرامهم ، وكتابة شرائعهم والشروع بما نسميه اليوم مدنية

***

انتهت العبودية بفضل التقدم الانساني — ولم يبقَ في العالم رجل يستطيع ان يملك جسد غيره وحياته الا في المناطق المتوغلة في الهمجية

ولكن ما برحت امامنا عبودية اخرى يجب ان نزيلها من العالم ونستأصل شأفتها وهي العبودية الصناعية ، عبودية الرجال والنساء والاولاد لثاء اجور قليلة لا تكاد تكفي لمعيشتهم اليومية

هذه عبودية جديدة ربما كانت آلم من العبودية القديمة ولكننا نسميها « المدنية الصناعية » ! لانهُ لا فرق البتة سواء كان جسدك ملكاً لرجل آخر يأمرك ويطعمك ويسقيك فتظل حيًّا قادراً على القيام بخدمته ام كنت حرًّا يستأجرك رجل آخر ، يستأجر جسدك فتشتغل لقاء دريهمات تسد بها رمقك ورمق عيالك

لان تسميتك لذاتك حرًّا لا تجعلك حرًّا

فالعبودية الصناعية ستزول ولاشك من العالم وتحل محلها شركات عظيمة يكون سواد الناس ساهمين فيها ، ولكل منهم عملهُ الخاص ، وزائد المفكرين منهم السعي وراء الاعمال التي تؤول الى سعادة سائر الناس وراحتهم عوضاً عن ان يقضي صاحب العمل حياته عاملاً في كيف يسلبهم ثروتهم ليضيفها الى ثروته

***

تسلط الانسان على أكلة لحوم البشر وطهَّر الارض نقريباً من هذه العادة البربرية فقد كان عهد لم ينكب عن ممارسة هذه العادة الأكل رعديد جبان

ويقول العلماء ان اكل لحوم البشر كان ضرورياً في الايام القديمة ، لان الذين لم يمارسوا هذه العادة لم يكن في طوقهم الا يحصلوا على الطعام الضروري لاولادهم في ايام الشتاء ، او في ازمنة المجاعات والاوبئة ولذلك كانوا يموتون و ينقرض نسلهم

ولكن معرفة الزراعة وتدجين الحيوانات البرية وضعت حدًّا لاكل لحوم البشر . لان المعرفة اصل لكل تقدم

فالناس اليوم لا يأكل بعضهم لحوم بعض . ذلك عهد مظلم قد مضى ولن يعود . ولكن بعضهم يستثمرون اجساد بعض . ففي مدينة نيو يورك مثلاً ، وهي اغنى مدن العالم ، يشتغل الناس في الانفاق المظلمة تحت الارض سبعة ايام كل اسبوع لكي يحصل كل منهم على ٣٨ ريالاً وهي عند التحقيق تكاد لا تكفي لطعام العامل وعائلته في تلك المدينة الكبرى . وكل واحد من هؤلاء العملة يدير قاطرة كبيرة مثلاً تجر وراءها عشرات العربات وفيها الالوف من ابناء الانسان الذين تتوقف حياتهم بامرها عليه

هذه عبودية كل العبودية وبرهان قاطع على ان ما تفاخر بتمدينه مدنية يفسح المجال للاغنياء دون غيرهم لكي يستثمروا اتعاب الفقراء من غير ان يقوموا بعمل ما ، غير ناظرين الى راحة الفعلة الذين يقومون باعمالهم

ولكن هذه الحالة لن تعمّر طويلاً

***

كان الاب في بدء العهد المسيحي يستطيع ان يتصرف بحياة ابنائه كيف شاء وطاب لهُ الهوى ، وكان يقدر متى اراد ان يقتل خدامهُ . ولكن ذلك عهد قد مضى وانقضى

بيد ان اكثر الحكومات المتمدنة اليوم ما برحت تقدم للعالم مثالاً رديئاً بالابقاء على حكم الاعدام الفظيع . وعملها هذا الذي تريد ان تلقي به المسؤولة قاسية على المجرم السفاح لكي لا يقتل فيما بعد هو هو نموذج للقتل الفظيع

***

ولكن هذا المثال الرديء سيزول ويزول معهُ الحكم بالاعدام الذي يحقر الانسانية الى درجة الهمجية . لان الناس الذين هجروا حقهم بقتل احدهم الآخر ، او بقتل ابنائهم وعبيدهم ، او بعرض الاولاد حال ولادتهم في ساحة المدينة لتأكلهم كلاب الازقة ، هؤلاء الناس السائرين على طريق الرقي سيدركون عاجلاً او آجلاً ان القتل لا يجوز للفرد وهو عارٌ عليهِ ، وهو كذلك لا يجوز للامة وهو شرٌّ رذيلة ترتكبها الحكومة

***

كانت المرأة في عهد الظلمة القديم عبدةً وآلةً للتسلية في بيوت الاغنياء ! وكانت ذليلة مهانة في بيوت الفقراء

تزوج الملك سليمان الف امرأة ولم يحسب عليهِ احد عملهُ عاراً في ذلك العهد ! بل كان محترماً مبجلاً من الجميع . بيد انهُ لا يستطيع ان يفعل ذلك اليوم .

في تلك الايام لم يكن للمرأة حق السيادة على اولادها وتربيتهم . وما برح هذا الحق من خصائص الرجل وامتيازاته في بلاد كثيرة ، يعني ان الام لا يجوز لها ان تدير دفة سفينة الخفرق الذي هو جزء من حشاشتها

ولكن امماً كثيرة قد رفعت هذا النير الثقيل عن كتفي المرأة، وهكذا سيفعل العالم باسره

***

في كل ميدان من ميادين الجهاد البشري ترى التقدم بيناً ظاهراً، لان قطار التقدم يسير بسرعة الى الامام ولا يعبأ بالعقبات التي تقوم في سبيله لتعيق سيره

وقد امست الايام القديمة، ايام العبودية والشقاء، وظلم المرأة والاولاد الصغار نسياً منسياً كأنها لم تكن

قد انقضت ايام التعصب والجهالة القديمة، التي كان الزعماء فيها قبوراً مكلسة مزخرفة من الخارج ممتلئة من الداخل بكل قذارة وشر

ولا تزال الحروب تنتابنا، حروب طاحنة يقتل فيها بعضنا بعضنا بما لم يحلم به اجدادنا من السرعة الهائلة. بيد ان العالم يعرف اليوم اكثر من اي عصر مضى ان الحرب شر وجنون

وفوق هذا يعرف العالم اليوم ان الحرب ويل وخسارة على الغالب والمغلوب معاً

ربحت فرنسا في الحرب العالمية الكبرى، وخسرت المانيا. ولكن مالية الحكومة الالمانية متوازنة، وعملتها ثابتة ذات قيمة. اما فرنسا فانها ما برحت مضطربة معتمة بما يسود فيها من الفوضى المالية والخراب الناتج عن تلك الحرب الرديئة. فقد بلغ من تدهور الفرنك انهُ بيع باقل من اربعة ملاليم في حين ان قيمتهُ الاصلية في بداءة الحرب كانت ٤٠ مليماً

وبريطانيا العظمى ربحت الحرب ايضاً. ولكن في بريطانيا العظمى ملايين من العمال الفقراء العاطلين تتهدد الفاقة حياتهم في كل ساعة، بصرف النظر عن الاعتصابات والديون الثقيلة التي ترهق الشعب الانكليزي بالضرائب الباهظة

وعليهِ فقد ظهر ان ربح الحرب هو الخسارة بعينها

***

على ان الجهالة تزول رويداً رويداً من بين الشعوب المتمدنة. ففي العالم ألف وستماية مليون نسمة بينهم الف مليون فقط لا يقرأون ولا يكتبون او ان من هذا الالف كثيرين يقرأون قليلاً جداً بحيث ان قراءتهم ليست وسيلة لتغذية افكارهم

ولكن النور قد اشرق على الجميع. فالمطابع تشتغل في كل انحاء العالم. والكتب

تخرج منها بالملايين والجرائد بالوف الملايين . والمبادئ والتعاليم والحقائق الجديدة تنتشر في جميع انحاء الارض كما تنتشر نقط المطر الساقطة من السماء

ان قوة المدرسة العمومية تنمو يوماً فيوماً بالرغم من كل ما يقوم في سبيلها من العقبات . والامم التي تسمي نفسها متمدنة لا تأذن في حرمان ولد من اولادها من التهذيب هذا هو التمدن !

ومع ان الشرائع في هذه الممالك المتمدنة تحظر على الناس ان يمنعوا الغذاء الروحي عن عقول الاولاد فهي لا تهتم بمنع الناس عن احتكار الغذاء وتجويع اجساد الناشئة الجديدة. فهنالك عشرات الالوف من الاولاد الذين يذهبون الى المدرسة جائعين ذوي اجساد ضعيفة محتاجة الى الغذاء ولذلك لا تستطيع افكارهم التقاط درر المعرفة والتهذيب

ولذلك نعتقد بانهُ كما ان المدنية الحاضرة تستحي من ان تحظر التهذيب على الاحداث في المدارس العمومية ستأتي ساعة تصير فيها الامم المتمدنة تأبى ان ترى طفلاً او ولداً من اطفالها او اولادها محتاجاً الى طعام او كساء او تنقصهُ اقل عناية جسدية ضرورية

فكل خطوة خطاها الانسان تجاه المدنية تحتاج الى خطوة غيرها توافقها . وكل واحدة من هذه الخطوات الضرورية التي ينتظر اليها الانسان اليوم سيبلغ اليها في حينها

***

بدأ الناس اولاً بالقوارب الصغيرة ، واليوم ننتقل بالطيارات العظيمة

شرعنا اولاً بتعويم الاخشاب على ضفاف الجداول ، واليوم عندنا البواخر الكبيرة والقواصات الضخمة التي لم يحلم بها اباؤنا

بدأنا اولاً بالقوس والنشاب ، والمقلاع والصوان المحدد ، واليوم لدينا المدافع التي ترسل قنابلها الى بعد سبعين ميلاً ، والغاز السام والمتفجرات والمفرقعات

بيد اننا سنتخلص من الآلات الضارة بمرور الايام ، كما تخلصنا من السهام والسيوف السامة ، وكما هجرنا عادة تسميم مياه الآبار التي يشرب منها اعداؤنا . لان العالم والتمدن السائد فيهِ يسيران معاً الى النور بثبات ومثابرة

فتمسك في ذلك طماً لينتك وتعزيتك